

الباب الثلاثون: في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وإنني والله أحبهم وأحب من يحبهم وأسأل الله أن يميّتي على محبة النبي محمد ﷺ ومحبتهم، وأن يحشرنا في زمرةمهم وتحت ألويتهم أنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

إنني أحبُّ أبا حفص^(١) وشيعتَهُ
وقد رضيتُ علياً قَدوةً عَلماً
كما أحبُّ عتيقاً^(٢) صاحبَ الغارِ
وما رضيتُ بقتلِ الشيخِ^(٣) في الدارِ
فهل عليّ بهذا القولِ من عارٍ؟
كلُّ الصحابةِ ساداتي ومعتقدي

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «فمن أطعم اليوم منكم مسكيناً؟» فقال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق بشيراً ما سلكتَ وادياً، إلا سلك الشيطان وادياً غيره». ولما أسلم رضي الله عنه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلى. قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا نعبد الله سراً بعد هذا اليوم.

ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيماً لهم وقال: انظر ملك العرب فرأه على فرس، وعليه جبة صوف مرقعة، يستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قربوس^(٤) السرج، وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه للبطريق فقال: لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء.

وأما أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه، ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة، فهو جامع القرآن، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضي الله عنه، وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أخبريني، مَنْ كان أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة. قلت: إنما أسألك عن الرجال. قالت: زوجها، فوالله لقد كان صواماً قواماً ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه. قلت: فما حملك على ما كان^(٥) فأرسلت

(١) أبا حفص: عمر بن الخطاب.

(٢) عتيقاً: أبو بكر الصديق.

(٣) الشيخ: عثمان بن عفان.

(٤) قربوس: ناحية في السرج.

(٥) يلمح إلى حادثة الجمل.

خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قضي عليّ. وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني، صف لي علياً، فاستعفى فألح عليه. فقال: أما إذن، فلا بدّ أنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة يقلب كفه، ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعواناه، ونحن والله مع تقريبه لنا، وقربه منا لا نكلمه هيبة له. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين لا يطمع القويّ في باطله، ولا يأس الضعيف من عدله. فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ الخائف، ويكي بكاء الحزين فكأنّي الآن أسمعته يقول: يا دنيا إليّ تعرّضتِ، أم إليّ تشوّقتِ هيهات هيهات، غُرّي غيري لقد أبنتك^(١) ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. أه من قلة الزاد، ووحشة الطريق. قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء. وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزني عليه والله حزن من دُبح ولدها في حجرها فلا ترقأ^(٢) عبرتها، ولا تسكن حيرتها. ثم قام فخرج.

وقيل: أول من سلّ سيفاً في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضي الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح. فقال: قُتل محمد. فخرج متجرداً وسيفه معه صلماً^(٣) فلتقاه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قتلت. قال: فماذا أردت أن تصنع؟ قال: أردت والله أن أستعرض على أهل مكة، وروي: أخط بسيفي من قدرت عليه. فضمّه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستتر به وقال له: أنت حواربي ودعا له. قال الأوزاعي: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم، بل كان يتصدق بها. وباع داراً له بستمئة ألف درهم. فقيل له: يا أبا عبد الله غُبت. قال: كلا والله، إني لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى.

وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: من حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة، حتى استقل على الصخرة. قال: طلحة. قال: أقرته السلام، وأعلمه أنني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استنقذته منه. من هذا الذي على يمينك؟ قال: المقداد بن الأسود قال: إن الله يحبه ويأمرك أن تحبه. من هذا الذي بين يديك يتقي عنك؟ قال: عمار بن ياسر، قال: بشره بالجنة حرمت النار على عمار. ومزّ أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صور دحية الكلبي فلم يسلم. فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً لهو في ملكوت السموات السبع، أشهر منه في الأرض. قال: بم نال هذه المتزلة؟ قال: بزهد في هذه الحطام الفانية.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ: «ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضِ»^(٤). الآية وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي: يم

(١) أبنتك: أبعدتك وطلقتك.

(٢) لا ترقأ: لا تجف ولا تقطع.

(٣) صلماً: حاداً.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٥١.

بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتي عشرة سنة، لم يجاوز سورة إلى غيرها، حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهماً قط في تجارة، ولم يل عملاً لسلطان، ولم يأمر بشيء حتى يفعله، ولم ينه عن شيء حتى يدعه. قال السفاح: بهذا بلغ. وقال الجاحظ: كان الحسن يستني من كل غاية فيقال فلان أزهدهم إلا الحسن، وأفقهه الناس إلا الحسن، وأفصح الناس إلا الحسن، وأخطب الناس إلا الحسن. وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهدهم من أويس، لأن عمر ملك الدنيا فزهدهم فيها، وأويس لم يملكها. فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر، فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب.

وقال أنس في ثابت البناني: إن للخير مفاتيح، وإن ثابتاً من مفاتيح الخير، وكان حبيب الفارسي من أختيار الناس، وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات، بأربعين ألفاً، كان يخرج البكرة^(١) فيقول: يا رب اشترت نفسي منك بهذه، ثم يتصدق بها. وكان أيوب السختياني من أزهدهم وأورعهم، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب، لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي لا أذكر ذلك المقام إلا اقتشعر جلدي. وقال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر. وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهدهم وأعلاهم نفساً، وكان الملوك يقصدونه ويذلون له الأموال، فلا يقبل شيئاً وكان يحج سنة، ويغزو سنة حتى مات رحمه الله. وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتباً عليه شيئاً، وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم^(٢). وعن محمد بن الحسن، قال: كان أبو حنيفة واحد زمانه، ولو انشقت عنه الأرض، لانشقت عن جبل من الجبال، في العلم والكرم والزهد والورع. وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة، ورابط في عبادان أربعين ليلة، وختم بها القرآن أربعين ختمة، وتصدق بأربعين ألفاً، وروى أربعة آلاف حديث، وما رؤي واضعاً جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح، وهو أسود مفلقل الشعر يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قعبان^(٣) من لبن. ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين، سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي، أستاذ إبراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن، لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة، وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله.

ومنهم سيدي فتح بن شحرف بن داود ويكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة. قال أحمد بن عبد الجبار: سمعت أبي يقول: صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ثم رفعها يوماً فقال: طال شوقي إليك، فعجل قدومي عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت أنساناً يقول: غسلنا فتح بن شحرف فرأينا مكتوباً على فخذه لا إله إلا الله، فتوهمناه مكتوباً؛ وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحواً من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً.

ومنهم سيدي فتح بن سعيد الموصلية يكنى أبا نصر، من أقران بشر الحافي. وسري السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلية: رجع فتح الموصلية إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائماً

(١) البكرة: كيس يضم: ١٠ آلاف درهم.

(٢) مثقال لحم: كناية عن نحوله.

(٣) قعبان: أقداح.

فقال: عشوني، فقالوا: ما عندنا شيء نمشيك به، فقال: ما بالكم جلوس في الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرج به. فجعل يبكي من الفرح ويقول: إلهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج، بأي يد^(١) كانت مني، فما زال يبكي إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفثيه فسلمت عليه فرد عليّ السلام. فقلت: إلى أين؟ فقال إلى بيت ربي عز وجل. فقلت: بماذا تحرك شفثيك؟ قال: أتلو كلام ربي. فقلت: إنه لم يجر عليك قلم التكاليف. قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنأ مني. فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة. فقال: إنما علي نقل الخطأ، وعليه البلاغ. فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادي يقيني وراحلتي رجلاي. فقلت: أسألك عن الخبز والماء؟ قال: يا عماء أرايت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله؟ قلت: لا. فقال: إن سيدي دعا عباده إلى بيته، وأذن لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوداهم، وإني استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعني؟ فقلت: حاشا وكلاً. ثم غاب عن بصري فلم أراه إلا بمكة، فلما رأني قال: أيها الشيخ بعد علي ذلك الضعف من اليقين.

ومنهم سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبري، صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازي. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان الجبري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه: لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل. وقال: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرته، ولا نقلني إلى شيء فسخطته.

ومنهم سيدي سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين، والعباد الموصوفين سكن الشام، ودخل بيروت وكان أكثر مقامه بيت المقدس. وقيل: اجتمع حذيفة المرعشي، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم: الغني من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد^(٢) من عيش يكفه عن فضول الدنيا. وقال بعضهم: الغني من لم يحتج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت في ذلك؟ فبكي وقال: رأيت جوامع الغنى في التوكل، ورأيت جوامع الفقر في القنوط، والغني حق الغنى من أسكن الله في قلبه من غناه يقيناً، ومن معرفته توكلاً، ومن قسمته رضاءً، فذلك الغني حق الغنى، وإن أمسى طاوياً، وأصبح معوزاً، فبكي القوم من كلامه.

ومنهم سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة قدس الله سره. كان من أجل السادات وأرباب الجد في المجاهدات، ومن كلامه: من أحسن في نهاره كفي في ليله، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره. ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له. وقال: لكل شيء علامة، وعلامة الخذلان ترك البكاء. وقال لكل شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن. وقال أحمد بن أبي الحواري: شكوت إلى أبي سليمان الوسواس، فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك، فأبي وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك، لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبي سليمان الداراني فسمعه يقول: يا رب إن طالبتي بسريرتي،

(١) بأي يد: مكرمة وصنيع.

(٢) سداد: ما يكفي من القليل.

طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك. وقال علي بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب، وصيانة الكرامات. وروي عنه أنه قال: نمت ليلة عن وردي فإذا حوراء تقول لي: أتانم وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام.

ومنهم سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفي الأصل، ولكنه سكن انطاكية. ومن كلامه لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة، وبركات متواترة.

ومنهم سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء، أصبهاني الأصل كتب عن ستمائة شيخ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف، وقطع البادية على التجريد^(١). وكان في ابتداء أمره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلاثاً فيأخذ من ذلك لنفسه دانقاً، ويتصدق بالباقي. ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة في مسجده خرج إلى الجبل، إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول في الجبل: يا رب إما أن تهب لي معرفتك، أو تأمر الجبل أن ينطبق عليّ، فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومنهم سيدي يحيى بن معاذ الرازي قدس الله سره سكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريقة. كان أوحده وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه. وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال، إن لم تنفعه، فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تدمه. وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بشس الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له اذكرني في دعائك. وقال: على قدر حيك الله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق. وقال: مَنْ كان غناه في كيسه لم يزل فقيراً، ومَنْ كان غناه في قلبه لم يزل غنياً؛ ومَنْ قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً. وروي أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار، فأنته امرأة من نساها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال ثلاثون ألفاً أصرفها في دين عليّ بخراسان. فقالت: لك عليّ ذلك، على أن تأخذها وتخرج من ساعتك. فرضي بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد. فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت، فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقه والعامه فغرت على ذلك.

ومنهم سيدي يوسف بن الحسين الرازي يكنى أبا يعقوب. كان وحيد وقته في إسقاط التصنع، عالماً أديباً صحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشي. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال، فإن قبل فاعلم أنه أحمق. وقال: إذا رأيت المرید^(٢) يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحبُّ من أن ألقاه بذرة من التصنع. وقال أبو الحسن الدراج: قصدت زيارة بن الحسين الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله، فكل مَنْ سألته يقول: أي شيء تريد من هذا الزنديق^(٣)؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الإنصراف، فبت تلك الليلة في مسجد، ثم قلت في نفسي: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته، فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه

(١) التجريد: عارٍ من الثياب.

(٢) المرید: السائر في درب التصوف على هدي من شيخه وهو (المراد).

(٣) الزندق: الذي يظهر الإسلام وهو له منكر.

وسلمت عليه فرد علي السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد فقال: أتحسن من قولهم شيئاً؟ قلت: نعم وأنشدته:

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

فأطبق المصحف، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه. ثم التفت إليّ وقال: يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق؟ وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن، ولم تقطر من عيني قطرة، قامت عليّ القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدي حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن، من أكابر مشايخ خراسان، صاحب شقيقاً البلخي. ومن كلامه: الزم خدمة مولاك تأتلك الدنيا راغمة، والآخرة راغبة. وقال: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كاذب، ومن ادعى حبّ الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب، ومن ادعى حبّ الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب. وسأله رجل: علامَ بنيت أمرك في التوكل على الله عز وجل؟ قال: على أربع خصال؛ علمتُ أن رزقي لا يأكله غيري فأطمأنت به نفسي، وعلمتُ أن علمي لا يعمله غيري فأنا مشغول به. وعلمتُ أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره. وعلمتُ أنني لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا استحي منه. وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو علي الدقاق، أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فحجلت المرأة. فقال حاتم: ارفعي صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك. وقالت: إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصري وأبا علي الروذباري، وكان أوحده مشايخ وقته. من كلامه: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتّموها وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدلل عليهم وإن سترها وأنشدوا في هذا المعنى:

إذا ما أسرت أنفسُ الناسِ ذكره
تبيّنهُ فيهم ولم يتكلّموا
تطيبُ بهِ أنفاسُهُم فتذيعُها
وهل سرُّ مسكٍ أودعَ الريحُ يكتُم

ومن كلامه أيضاً: إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية، فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس، وقال: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم. وقال: إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدي جعفر بن نصر الخلدي يكنى بأبي محمد، بغدادي المولد والمنشأ. صحب الجنيد وانتمى إليه، وحجّ قريباً من ستين حجة. روي أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتكي بكاء بحرقة فقال لها: ما لك تبكين؟ قالت: تكلى بولدي فأنشأ يقول:

يقولون تكلى ومن لم يذُق
فراق الأجيّة لم يتكل
لقد جرّعتني ليالي الفراق
شراباً أمر من الحنظل

وروي أنه كان له فص فوقه منه يوماً في الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت. فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصفحها، وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع عليّ ضالتي. وقد روي أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً. وروي الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال: ودعت في بعض

حجاتي المزين الكبير الصوفي قلت زودني شيئاً. فقال: إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين إنسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا رب فيه اجمع بيني وبين كذا فإن الله يجمع بيننا، أو بينك، وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ. مجاب الدعوة، وهو أستاذ السري، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤديهم وهو صبي. فكان المؤدب يقول له قل: هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضرباً موجعاً فهرب منه فكان أبواه يقولان ليه يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافق عليه. فرجع إلى أبويه فدق الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أي دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه. وكان مشهوراً بإجابة الدعوة. ومن كلامه رضي الله عنه: إذا أراد الله بعد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل^(١). وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكي، وتندب. أخلص تخلص. وقال سري: سألت معلوماً عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل. قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم، ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته:

الماء يغسل ما بالثوب من درن^(٢) وليس يغسل قلب المذنوب الماء

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد، فمر به صبيان في زورق يضربون بالماهي ويشربون. فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم. فرفع يده إلى السماء وقال: إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة. فقال له أصحابه: إنما سألتك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم. فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم ذلك. وقال سري: رأيت معلوماً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب. قال: هذا معروف الكرخي سكر بحبي، لا يفيق إلا بلقائي. وقيل له في مرضه: أوص. فقال: إذا مت فتصدقوا بميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً. وقال أبو بكر الخياط: رأيت في المنام كأنني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء، فقلت: يا أبا محفوظ ما فعل الله بك، أو ليس قد مُتَّ؟ قال: بلى، ثم أنشد يقول:

موتُ التقيِّ حياةٌ لا نفاذَ لها قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي، يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره، وكان من أقران السري الحارث المحاسبي، وكان أبو تراب النخشي يصحبه. ومن كلامه: مَنْ أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي، ومَنْ أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي. وقال: السلامة كلها في اعتزال الناس، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل. وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم، وترك المعاصي، وطلب الحلال، وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس؛ إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مُدحتم فلا تفرحوا، وإن دُمتم فلا تحزنوا، وإن كذبتكم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرغ: سمعت قاسم ابن عثمان

(١) الفترة والكسل: الإنكسار والضعف.

(٢) درن: قدارة.

يقول: إن لله عبادةً قصدوا الله بهمهمهم، فأفردوه بطاعتهم، واكتفوا به في توكلهم، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرّة عين إلا فيما قرب إليه. وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة.

وروي عنه أنه قال: رأيت في الطواف حول البيت رجلاً، فتقربت منه فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض. فقلت له: ما لك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك؛ كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى، غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتضرب أعتاقنا، فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة، عليها سبع جوار، من الحور العين، في كل باب جارية، فقدم رجل منها فضربت عنقه فأريت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعتاق الستة وبقيت أنا، وبقي باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقي استوهبني بعض خواص الملك، فوهبني له فسمعتها تقول: بأي شيء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب. فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني، قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه لا رأى ما لم يروا، وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، كان جليل القدر مالكي المذهب، عظيم الشأن، صحب الجنيد ومن في عصره، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جدّ في الطاعات. يقول هذا شهر عظّمه ربي، فأنا أولى بتعظيمه. وسئل عن قول النبي ﷺ «خير عمل المرء كسب يمينه» فقال: إذا كان الليل فخذ ماء وتبها للصلاة وصلّ ما شئت، ومُدّ يدك وسلّ الله عزّ وجلّ فذلك كسب يمينك. ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشياً عليه. فلما أفاق أنشد يقول:

هذه دارهم وأنت محبّ ما بقاء الدموع في الآماق^(١)

وروي أنه قال: كنت يوماً جالساً فجرى في خاطري أنني بخيل، فقلت: مهما فتح الله عليّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني. قال: فبينما أنا متفكر، إذ دخل عليّ شخص ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يخلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لي: ادفعها للمزين، فقلت له: إنها دنانير، فقال: إنك لبخيل. قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عادتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً. قال: فرميتها في الدجلة، وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدي زرقان بن محمد، أخو ذي النون المصري صاحب سياحة^(٢)، كان بجبل لبنان. حكى عن يوسف بن الحسين الرازي قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذي النون المصري جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه، وجلست من ورائه فالتفت إليّ وقال: ما حاجتك؟ فقلت: بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذي النون المصري أعرضهما عليك، فقال: قل، فقلت: سمعته يقول:

قد بقينا مذبذبين حيارى نطلب الوصول ما إليه سبيل

(١) المؤق: طرف العين.

(٢) سياحة: أسفار.

فدواعي الهوى تخفُّ علينا وخلافُ الهوى علينا ثقیلاً
فقال زرقان ولكني أقول:

قد بقينا مذهلين حيارى حَسْبُنَا رَبُّنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ
حيثما الفوزُ كان ذاك منانا وإليه في كل أمرٍ نَمِيلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسي فقال: رحم الله ذا النون المصري، رجع إلى نفسه فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري، وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورفقائه.

ومنهم سيدي أبو عبد الله النباجي سعيد بن بريد، كان من أقران ذي النون المصري، ومن أقران استاذي أحمد بن أبي الحواري، له كلام حسن في المعرفة وغيرها. روي عنه أنه قال: أصابني ضيق وشدة فبت وأنا مفكر في المسير إلى بعض إخواني، فسمعت قاتلاً يقول لي في النوم: أيجمل بالحر المرید إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد؟ فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنهم سيدي بشر بن الحرث قدّس الله روحه، يكنى أبا نصر، أحد رجال الطريقة، أصله من مرو، وسكن بغداد، وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سري السقطي وغيره. ومن كلامه: لا تكونُ كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك. وقال: أول عقوبة يُعاقبها ابن آدم في الدنيا مفارقة الأحباب. وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على المتكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل فقال: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقي رجلاً سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدي يا أبا نصر، وبشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولى الرجل تفرغرت^(١) عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدري ما حاله. وروي أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه، ولا أبيع غزل الليل من غزل النهار، فهل عليّ في ذلك شيء؟ فقال: يجب أن تبيني. فلما أنصرفت قال أحمد لابنه: اذهب فانظر أين تدخل. فرجع فقال: دخلت دار بشر. فقال: قد عجبت أن تكون هذه المسائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذي مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك^(٢) إلى الطبيب. قال: أنا بعين الطبيب يفعل بي ما يريد. فألحوا عليه فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء، فدفعته إليهم في قارورة، وكان بالقرب منهم طبيب نصراني فدفعوا إليه القارورة، فقال: حركوا الماء. فحركوه. فقال: ضعوه فوضعه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: ماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحلق أهل زمانك في الطب. قال: هو كما وصفت لكم. إن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده، وإن كان ماء مسلم فماء بشر الحافي، لأن ما في زمانه أخوف منه. قالوا: هو ماء بشر. فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر، قال لهم: أسلم الطبيب، قالوا له: ومن أعلمك بهذا، قال: لما خرجتم من عندي نوديتُ: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب. توفي سنة سبع وعشرين ومائتين.

(١) تفرغرت: امتلأنا دموعاً.

(٢) نرفع ماءك: لعله يقصد إلى تحليل بوله.

ومنهم سيدي أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، من أجل المشايخ، كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي، إلى أن سقطت وهي تضحك، وسئل: بأي شيء وجدت هذا المعرفة؟ فقال: بطن جائع، وبدن عار. وقيل له: ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم. دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة^(١). وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لِمَ؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي. فأقول لبيك، فقله لي يا عبدي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء. وقال له رجل: دُلّني على عمل أتقرَّب به إلى ربي. فقال: أحبُّ أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليٍّ فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيك. توفي سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري شيخ وقته، وفريد عصره، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ، وصحب خالد السري، والحرث المحاسبي^(٢)، ودرس الفقه على أبي ثور، وكان يفتي في مجلسه بحضوره وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضي الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد، أن يشغله بما لا يعنيه. وقال: الأدب أديان، أدب السر، وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤي في يده يوماً سبحة، فقيل له: أنت مع تمكك وشرفك تأخذ بيدك سبحة. فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً. وقال الحسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس في منامي وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحي من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس! لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندي ثلاثة نفر. فقلت: ومن هم؟ قال: في مسجد الشونيزي قد أضنوا^(٣) قلبي، وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل، فأكاد أن أحرق. قال الجنيد: فانتبعت من نومي، ولبست ثيابي، وجئت إلى مسجد الشونيزي بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل، قيل إن الثلاثة الذين كانوا في المسجد الشونيزي: أبو حمزة، وأبو الحسن الثوري، وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم. وقال محمد بن قاسم الفارسي: بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي يقول:

بحرمة غربتني كم ذا الصدودُ	ألا تحنوا عليّ ألا تجودوا
سرورُ العيدِ قد عمَّ النواحي	وحزني في ازديادٍ لا يبيدُ
فإن كنتُ اترَفْتُ جِلالَ سوءِ	فعدري في الهوى أن لا أعودُ

توفي الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، وصلى عليه نحو ستين ألفاً رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) منعها الماء سنة: يقصد الامتناع عن الاستحمام.

(٢) الحرث المحاسبي: لعله الحرث بن عبد الله المحاسبي.

(٣) أضنوا: أتعبوا.

وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات عليّ ببركته سيدي الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالي وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريفي المالكي، قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أوحده زمانه في الزهد والورع قامعاً لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة، وبركات متواترة، قد أطاع أمره بالخلائق عجباً وعرباً، وانتشر ذكره في البلاد شرقاً وغرباً، وأنت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظاً على النوافل، ملازماً للفرص، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يمتع نفسه في الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة، بل قيل إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة، وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه، نصوحاً لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل ببشره ويبره عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم:

وإني لألقى المرء أعلمُ أَنه عدوي وفي أحشائه الضغنُ كامنُ
فأمنحُه بشري فيرجع قلبُه سليماً وقد ماتتْ لديه الضغائنُ

وكانت جملة أهل زمانه عليه، وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:
وما حَمَلُونِي الضَّيْمَ إِلَّا حَمَلْتُهُ لأنني محبٌّ والمحِبُّ حَمُولٌ^(١)

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة، عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر، لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد في أمرٍ إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبته رضي الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكانها من طيبها كانت سنة، ما قطع برّه يوماً واحداً عني، حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة بيض الله وجهه في القيامة، وبلغه من فضل ربه مآربه. وكان رضي الله عنه فقيهاً في مذهب الإمام مالك. إمام كبير لم ير له في زمانه من شبيهه ولا نظيره، وله في علم الحقيقة أقوال. وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال، ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ولكني أقول كان أوحده عصره والسلام. عاش رضي الله عنه نيفاً وستين سنة، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية وأحوال حسنة. وكان رضي الله عنه كثير الأمراض والأسقام، حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذي الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الأمر واحتضر ولم يزل في النزاع^(٢) إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفي رحمه الله تعالى، سعيداً حميداً في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس وفاته عظم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان. حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم، وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا وهو إمام العصر علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حلفَ الزمانُ ليأتينَّ بمثلهِ خَتَّنتْ يمينك يا زمانُ فكفِّرِ^(٣)

رضي الله عنه، ورضي عنا به، ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة. فشرعوا في تجهيزه وغسله فكنتم ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقدته. كيف لا؟ وقد كان لي والدًا

(١) المحبُّ حمولٌ: أي المحب كثير الاحتمال للجور.

(٢) النزاع: طلوع الروح.

(٣) فكفِّر: أي لم يفِ يمينه فوجبت الكفارة.

شفوقاً وباراً محسناً عشوقاً. فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة، والنواب، والكشاف والولادة، وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاقت بهم الجامع على سعته، وضافت الشوارع والسكك والطرفات من كثرة الناس، فلم يُرَ أكثر جمعاً، ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم. وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه. قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز، يريد بذلك اجتماع الناس. والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم، وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزايته التي أنشأها بستدفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. ونسأله لنا التوفيق والإعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.